نفح الطيب من مدينة الحبيب

بقلم الشيخ محمد المجذوب
المدرس بكلية الشريعة بالجامعة

لعل افضل تعريف للسعادة انها لحظات انخطاف تحلق بالنفس البشرية وراء حدود المكان والزمان ، فتضع عنها آصار التراب ، وتحررها من اغلال الحقد والاثرة ، فلا ترى الا الجمال ، ولا تستشعر سوى الحب .

واذا كان لهذا التعريف ظل من الحقيقة فأنا سعيد ، ولكن سعادتي لا تتقيد بلمعات تبرق ثم تمحي ، بل هي جلوات متصلة ، بدأت منذ حطت بنا ماخرة الهواء في مطار المدينة المنورة ، ثم لم تنقطع . وليس ذلك بعجيب . . انها مدينة المصطفى التي حقق بها الله دعوة حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، حين أوحى اليه أن يسأله « مدخل صدق » فكانت طيبة هي المدخل الذي سأل .

والدار والايمان ومدخل الصدق . . انما هي اشارات الهية الى معان لا يدرك مدلولها الا القلب الذي تفتح في جو الوحي ، فهو يطل من خلال حروف القرآن على عوالم لا سبيل الى وصفها بقلم أو لسان . . .

* * * * * *

وفي كل مكان كلام عن السلام ، ولكنه كلام منطوق بلغة الحرب ، وادعاء مكذوب تفضحه روائح الحقد ، الذي يمزق وشائج الارحام ، ويحطم وحدة

لا نسانية ، حتى ليستحيل الانسان في جحيمها خنجرا يفتك ، او ثعلبا يراوغ . . ولكن في هذه الارض التي باركها الله تسترد تلك الكلمات مضمونها السليب ، فاذا هي واقع يعيشه المؤمن ،وطهرا روحيا لا يتسلل اليه ضِغن . . فكأنه شريد انتزع من مرابع أنسه ، فراح يضرب في الارض على غير هدى ، فما إن احتواه عالم المدينة حتى وجد ضالته ، فاستراح بعد عناء ، وسعد بعد شقاء ، وأدرك في عمقٍ معنى الحديث النبوي الصحيح (ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها) ، ولا غرو . . فهو هنا يتفاعل مع حقائق هذا الخبر النبوي بكل وجوده ، بعد أن كان منه على حدود الالفاظ ، يؤمن بها دون ان يستطيع لمدلولها تحديدا . .

* * * * * *

في (طيبة الحبيبة) يعيش المسلم الحق تاريخ الدعوة الالهية في مرحلتها الثانية ، مرحلة التنظيم والجهاد والبناء ، يعشه حياة حارة خافقة ، ترجمت فيها الكلمات المكتوبة الى اشعة وظلال وانسام وألحان ، يحسها في كل خفقة هواء ، وفي كل ذرة هباء . . .

هذه الروضة المطهرة بين المنبر والقبر المنور ، قد طالما احتوت شخص الحبيب ، ساجدا ومعلما ومبلغا . . فما اسعد المؤمن حين يضع جبهته في البقعة المباركة التي طالما شهدت سجداته . . . ويتنفس في الجو نفسه الذي طالما مازح نفحاته ، ويمس الارض نفسها التي طالما سعدت بخطواته !

وأية غبطة يمكنها ان تضاهي تلك التي يستشعرها المؤمن هناك ، وهو يرى الى جانبه تلك الروضة الأخرى التي شرفها الله ، بأن جعلها مسكن حبيبه في حياته ومثواه في مماته . !

ثم أليس هنا قد وقف صاحبه في الغار وصديقه المفضل يعالج صعقة المسلمين يوم الكارثة الكبرى ، اذ سرى في القوم نَبَأ وفاته صلى الله عليه وسلم فزلزلت المدينة

زلزالها ، وذهلت العقول ، وانهار الجلد ، حتى أقبل عليهم يذكرهم بخبر السماء الذي صرفتهم عنه فجأة الهول ! . أليس ها هنا قد سالت دماء الفاروق بيد القومية الحاقدة . . التي آثرت المجد الجنسى على الحق الرباني ، فرفضت دعوة الله ، ثم حاولت اطفاء شعلته ، بالقضاء على الرجل الذي صنع الاسلام منه مثل العدالة الاعلى للعالمـــين . . .

أليس من هنا . . من هذا الحرم الأطهر بدأت كتائب الاسلام زحفها لاستئصال النكسة الجاهلية ، التي تخبط فيها اهل الردة ، فأماطت عن ابصارهم العمى ، وأعادتهم الى جنة الاسلام نادمين منيبين ، بعد ان تبينوا ان الاسلام دين الابد ، ونظام اليوم والغد ، لا يموت بموت أحد ! . .

أوليس من قلب هذا الحرم بدأت الانطلاقة الاولى بمشعل الاسلام الى خارج حدود الجزيرة ، تبدد الظلام ، وتوقظ النيام ، وتنشر اني توجهت بذور الامن والسلام . . .

* * * * * *

والمدينة حرم كلها . وفي كل شبر من هذا الحرم ذكريات وعبر ودروس ، بها يجدد المسلم طاقاته ، ويشحن مدخراته ، ويتزود بالقوة الروحية التي تعده لمجابهة الاحداث ، بأقباس من العزيمة فوق مستوى الاحداث . . انه حيثما يتلفت يستقبل الآثار الموحية . . فهنا « أُحـــد » الجبل الذي يحبنا ونحبه . . احد الذي شهد انتصار القلة المؤمنة ، حين اخضعت نفسها لامر قائدها المعصوم وهو يحركها بقانون السماء ، ثم شهد المحنة الفاجعة التي نزلت بها حين وُجِد فيها من تستهويه الدنيا فيخالف عن امره وهو يظن انه غير ملوم . .

وهنا بقية الخندق الذي يعلمنا كيف فهم المسلمون الاولون أمر ربهم بالاستعداد فلم يدخروا وسعا لتحصين وجودهم بكل ما وسعهم استخدامه من قوى الطبيعة ، ولم يبخل واحد منهم بجهد يملكه ، وهو يرى سيد ولد آدم المزود بعصمة الله ،

يتقدمهم في جرف التراب ، وشق الصخور ، حتى ليلجأون اليه في كل ما يعجزهم من ذلك ، كما اعتادوا ان يلوذوا به في ساحات الروع ، كلما احمرت الحدق ، وحمي وطيس القتال . . .

وهناك في الجانب الآخر . . ينتصب مسجد قباء كالحمامة البيضاء ، المسجد الذي تعدل فيه الصلاة عمرة ، لانه اسس على التقوى فكان بذلك رمز الخلود ، الذي يحققه الاخلاص للأحد المعبود . . تنتابه جموع المؤمنين صباح مساء ، للتزود من موعود الأجر ،الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم مصليه . . .

ولا جرم إن منظر هذا المسجد الخالد ليذكر أولى الالباب كل يوم ، بمأساة ذلك المسجد البائد ، مسجد الضرار ، الذي اسس ليكون مركز تجسس لاعداء الله على رسوله ، فكان مصيره مصير الخيانة ، تنتفخ حتى تتراءى ضخمة كبيرة ، ولكنها ما إن تواجه الحقيقة حتى تتلاشى كأطياف السراب ، حين تستكشفها العين المبصرة . . .

وهنالك عـــلى مقربة من المدينة الحبيبة خاض الاسلام أول معاركه الابدية مع قتلة الأنبياء من يهود ، وقد بلغت مؤامراتهم ذروة الهول حين احاطوا برسول الله وصحابته من وراء ، بينما أحدقت الوثنية بالمدينة من امام ، بكل ما تملك من حول وطول وخيلاء ، واندفع خفافيش المنافقين من الداخل يبثون ألغام الخيانة في الخفاء . . فكانت محنة ابتلى بها المؤمنون وزلزلوا زلزالا كبيرا . . ولكنها لا تزدهم الاتثبيتا وايمانا ، كما تزيد النار الذهب صفاء ولمعانا ، فلم يهنوا ولم يستكينوا حتى دفع الله البلاء ، وهزم الحلفاء وكفى المؤمنين القتال .

تلكم الذكريات . . هي بعض دروس الوحي ، يتلقاها المؤمن في مهبط الوحي ، فيتعلمون منها كيف يربطون وجودهم بأهداب الرسالة ، التي ألفت في ربع قرن ، من الاميين الضائعين في صحراء المجهول ، خير أمة اخرجت للناس . . ثم قذفت بهم الى الدنيا ، كما تقذف الشمس بأشعتها ، حياة للارض الميتة ،

وضياء للأعين الزائغة ، ودِفئا للاكبد المقرورة ، فاذا هم بعد قسوة الذئاب ، رسل الرحمة الربانية ، يحررون عباد الله من كل عبودية لسواه ، ويضعون عن اخوتهم المعذبين اغلال السفاحين ، فتعود بفضلهم الى الحياة الذاوية بهجتها ، وتشرق الارض بعد ظلمةٍ بنور ربها .

من هذه الذكريات يتعلمون دروس الصبر الذي قهر اليأس ، ليثبتوا في وجه اعاصير اليوم ، كما ثبت اسلافهم على اعاصير الامس ، واثقين بنصر الله كما وثقوا ، مخلصين جهادهم لله كما اخلصوا .

وليس احوج من مسلمي اليوم — معاصري النكبة المخزية — الى الاستمداد من هذه المعاني ، وهم يخوضون معركة الحياة والممات ، في وجه اعداء لاعداد لهم ، منهم اليهود ، وفيهم المنافقون ، وبينهم المثبطون ، وعلى رأسهم المتواطئون مع اعداء الايمان ، المتاجرون بمدّعيات الاسلام ، يرفعون اصواتهم باسمه كلما رأوا في الاشادة به منفعة ، ولكنهم لا يستكفون عن اقامة السدود دون اشعته ، خشية ان يفسد مؤامراتهم التي يبيتونها عليه في الظلام ! . .

* * * * * *

ان المؤمن الذي يسعد بزيارة هذا البلد الحبيب ، لا يسعه ان ينسى كونه في عاصمة الاسلام الاولى ، العاصمة التي عرفت البشرية فيها اولى انموذج كامل للدولة الربانية ، التي حطمت حواجز العصبيات الاسرية والقبلية والجنسية ، فردت الناس بذلك الى اخوة لم يصنعها الدم ، ولكن نسجتها العقيدة التي يعلن قانونها الاساسي ، ان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب ، اكرمهم عند الله اتقاهم . العاصمة التي انتهت اليها ذات يوم ازمة الدنيا ، فهي تملي ارادتها على الحياة والناس ، فتحكم ترفاتهم ، كما تحكم القوانين الكونية حركة الفلك ، لان ارادتها من ارادة الله ، وما وظيفتها الا تحقيق المثل الاعلى للنظام الذي شاء الله ان يكون ضابط الامن ومناط السعادة ، لكل حي على هذه الارض .

ولكن شدّ ما يحزن هذا المؤمن . . ان يرى واقع هذه العاصمة ، وقد تجردت من سلطان الخلافة ، فلم تعد تحرك الدنيا كعهدها بالأمس . . لان اليهودية التي ألبت الغوغاء على ثالث الخلفاء ، قد شاء القدر ان تعرقل حركة المد السعيد ، فيتحول مركز الثقل عنها الى غيرها . . ثم لا يزال إرثها هذا ينتقل من بلد الى آخر ، حتى استحال مزقا تتوزعها الايدي بين اقليم واقليم !

اجل . . لقد سلبت المدينة الحبيبة سلطانها السياسي على ربوع المسلمين ، ولكن هل انقطع أثرها في وجودهم ؟ هل فتر ايحاؤها الى قلوبهم . . ؟

ان نظرة واحدة الى هذه السيول البشرية ، متدفقة عليها من مختلف انحاء العالم الاسلامي ، لتقدم الجواب الشافي على هذا التساؤل . . اذ تؤكد ان هذا الحرم المرموق لم يزل هو صاحب السلطان النافذ في قلوب مئات الملايين من اتباع سيد المرسلين . . ؟

* * * * * *

ولعل اروع ما احتفظت به مدينة المصطفى من تراث الماضي العظيم هو تلك الطمأنينة التي تغمر بظلها الوارف كل شيء ، حتى النبات والطير والحيوان فضلا عن الانسان . . .

انك هنا في متحف بشري عجيب ، تطل منه على مواكب البشر ، في في مختلف الوانهم ولغاتهم وأزيائهم .. وأكثر ماتشهد ذلك في المسجد النبوي ، حيث ينصبُ السيل البشري الوافد من انحاء الدنيا . كيفما اتجهت هناك تجد نفسك مع أخ لك لم تلده أمك ، يعجز لسانه عن ترجمة شعوره ، فتقوم يده مقام لسانه . يصافحك . . فتحس انه يضع قلبه على راحته ليقدمه اليك حبا وشوقا ورحمة . .

وتغادر المسجد النبوي الى الشارع ، ولكن سرعان ما تشعر انه لم يغادرك لأن روحه مرفرفة على أنحاء البلد الطاهر . . حتى الباعة الذين عرفتهم في كل بلد لا يمنحونك من لطفهم الا بمقدار ما تنفحهم من نقودك ، حتى هؤلاء عليهم

هنا من جوار الحرم طابع مميز ، اكثر ما يطالعك في تلك الثقة الغريبة التي يقابلونك بها في كل حانوت ، ولا أكاد استثني . . انك لتشتري من احدهم السلعة فتقدم اليه ورقة من النقد ليرد اليك التتمة ، فاذا لم يجد لديه ما يفي ، اعاد اليك ورقتك معتذرا وهو يقول « تعطيني فيما بعد » فكأنك من أحب معارفه اليه ، وانت الذي لم تره قط ، ولم يلمح لك وجها من قبل ! .

وتمضي هنا وهناك متفرجا مستكشفا ، فلا تشعر انك فارقت هذا الوحي او فارقك . . أنّى سِرْتَ تسمع تحية الاسلام ، وأنّى اتجهت احسست بنفحات السلام ، رقة في الحديث ، ورفقا في المعاملة ، وأمنا في كل شيء . .

اجل . . انها نفحات الحرم المبارك ، تغمر بروحها كل شيء ، فالطيور التي عهدتها تجفل حتى من شبح الانسان ، قد تقع عليك او تدنوا اليك ولا ترى لها نفرة ، الا ان تخشى منك وطأة الغفلة . . وفي هذه الغمار النورانية يعيش الانسان آمن السرب ، مطمئن القلب ، خالي الذهن من كل شاغل يصرفه عن الاستغراق في ملكوت الله . . .

ولا عجب ، ان في مدينة الحبيب لبقية تحسها القلوب من المجتمع الاول الذي أنشأته تربيته المثلى ، فكان صورة من الاخوة التي حُدّدت فيها قيمة الانسان على اساس من الاخلاق دون الاعلاق ، فلا ترى هنا ابيض يستكبر على احمر ، ولا تجد في حرمه المطهر من يقول لملون ليس هذا بمكانك. بيد انك لا تعدم أن ترى في اي لحظة رجلا يصافح جاره وهو يقول له يا اخي . . لا تنسنا من دعائك . . .

أوليس في هذا السلام والطمأنينة والأخوة الضالةُ التي يفتش عنها المفكرون ، ويتلهف اليها الحزانى والمعذبون . . ؟ أجل وربي ، وسيظلون عبثا يفتشون ، وعبثا يكدحون ، حتى يعرفوا طريقهم الى روح هذه البلدة المصفّاة ، التي أخبر الصادق الامين انها محصنة بالملائكة من الدجال والطاعون .

* * * * * *

ولكن . . ولنعلنها صريحة ان هذه النفحة ، نفحة السلام والغبطة الروحية ، في خطر . . انما الخطر يزحف من الخارج مع السموم الوافده من هناك وهنالك . . تلك التي تريد ، بكل ما تملك من قوة الاغراء والاغواء ، ان تُعَكِّرّ على الجو الطهور صفاء الفطرة،وان تصرف القلوب عن ريها الروحي إلى وهم كالماء الاجاج، لا يزداد منهالقلب غبّا الاازداد ظمأ ... تماما كما فعلت في الآخرين الذين خدعتهم تلك السموم الدخيلة ، فسلختهم من اخلاق الاسلام ، حتى لم يبق في ايديهم من دليل عليه غير الهوية المزورة . . .

فليقف أهل الحرم بوجه ذلك الخطر الزاحف . . . وليتذكروا انهم الاسوة ، وان المسلمين عنهم يأخذون ، وبهم يقتدون ، وليزودوهم بنفحات مباركات من عبير النبوة ، الذي لم يشخصوا اليهم من مئات الاميال وآلافها الا شوقا اليه ، وحرصا عليه . .

* * * * * *

وبعد . . فانا لم أعد الحقيقة عندما قلت انني سعيد . . سعيد منذ حطت بي الطائرة في مدرج الوطن الحبيب . . وطن القلب الذي لا يجد المؤمن قراره الا في ظلالـــه . . .